في خدمة المحبّة

المتروبوليت سابا (اسبر)

بات مصطلح الخدمة الاجتماعيّة يُطلق على جميع خدمات المحبّة، التي تقوم بها الكنيسة. بالطبع، صفة "خدمة المحبّة" أجمل بكثير، لأنّها تحمل السِمة المسيحيّة المميِّزة لهذا العمل الخَدَمي. لكن غلبة اللغة الدنيويّة، على اللغة الروحيّة، تظهر واضحةً في هذا المجال!

ما الفرق بين الصفتين؟ عندما تُستخدم لفظة المحبّة، تبقى صفة الخدمة المسيحية محفوظة، نظريّاً، على الأقلّ، وكذلك غاية هذه الخدمة والدافع لها، وتالياً يبقى التذكير بالحفاظ على روح المحبّة المسيحيّة ممكناً. أمّا عندما يُستبدل المصطلح المسيحي بآخر دنيويّ، فتحتلّ لفظة "الاجتماعي" محلّ لفظة "المحبّة"، التي تصير عرضة للنسيان، وتالياً لعدم التذكير بها. إذ ذاك يُستسهل فصل المحبّة الشخصيّة عن الخدمة، [تلك التي لا تكتمل الخدمة إلا بها]، ويُكتفى بأداءٍ وظيفيّ، يحافظ، في أفضل حالاته، على أداءٍ تقني عالي المستوى، لا غير، لكنّه لا يمسّ النفس الإنسانيّة، إذا لم يؤذها.

يُفترض أن تكون محبّة المسيح، في "إخوته الصغار"، أي ذوي الحاجات، على تنوّعهم، الدافع الأوّل والأساس لخدمة المحبّة الكنسيّة، وإلا فمفهوم "العمل الاجتماعي" المحض يسود، على حساب الروحانيّة المسيحيّة.

وصيّة الربّ العظمى هي المنطلق المسيحي في خدمة المحبّة. "أحبب الربّ إلهك بكلّ قلبك، وبكلّ نفسك، وبكلّ ذهنك ... والوصية الثانية مثلها: أحبب قريبك مثلما تحبّ نفسك" (متى٢٢/٣٦-٣٩).

الفهم المسيحي للمحبّة، بحسب هذا المعيار الإنجيلي، يرتبط، مباشرة، بمحبّة الله، التي تجد تعبيرها الأسمى في محبّة الخليقة، والبشر بخاصّة. فمحبّة الله تجعل محبّة البشر تدوم، وتتأنّى، وتصبر، وتضحّي، ولا تطلب ما لذاتها، بل ما لغيرها. وفي الوقت ذاته، تنعكس محبّة الآخرين، في الإنسان المحبّ، تنقيةً، وتطهيراً، وتحمّلاً، وصبراً، فيزداد شفافيّة وحبّاً لله، أكثر فأكثر.

محبّة الله مرتبطة بمحبّة البشر، والعكس صحيح. وقد جاء في رسالة يوحنّا الإنجيلي الأولى: "إذا قال أحد: أنا أحبّ الله وهو يكره أخاه كان كاذباً ... وصيّة المسيح لنا هي: من أحبّ الله أحبّ أخاه أيضاً" (١يو٤/٢٠-٢١).

يرسم القديس دوروثيوس الغزّاوي هذه العلاقة في صورة هندسيّة معبِّرة جدّاً: صورة الدائرة، وفيها المركز الذي يرمز إلى الله، ونقاط المحيط، التي ترمز إلى البشر؛ كل إنسان نقطة. أمّا نصف القطر فهو الطريق الذي يسلكه الإنسان إلى الله. وكلّما اقتربت أنصاف الأقطار من المركز، ازدادت اقتراباً من بعضها بعضاً. وفي المقابل، وعلى العكس، كلّما ابتعدت عن بعضها، ازدادت ابتعاداً عن المركز. هكذا هي العلاقة بين محبّة الله ومحبّة البشر.

كذلك تهتمّ المحبّة المسيحيّة بالداخل لا بالخارج. فليس كلّ عمل يبدو، خارجيّاً، صالحاً، هو شهادة محبّة في الحقيقة. ليس كل عمل خيّر، بحدّ ذاته، بالضرورة، تعبير محبّة مسيحيّة. بكلام آخر، ليس كل عمل يبدو صالحاً بالاعتبارات العالميّة هو كذلك، من وجهة النظر المسيحيّة.

لقد نظر المسيح إلى القلب، لا إلى العمل الظاهر. وأدان الفرّيسيين بسبب اهتمامهم بإظهار أعمالهم "الصالحة". بينما هم، من الداخل ليسوا صالحين. "أنتم كالقبور المبيَّضة، ظاهرها جميل وباطنها ممتلئ بعظام الموتى وبكل فساد. وأنتم كذلك، تظهرون للناس أبرارَ وباطنكم كلّه رياء وشرّ" (متى ٢٣/٢٧-٢٨). "أنتم أيّها الفرّيسيون تُطهّرون ظاهر الكأس والصحن، وباطنكم كلّه طمع وخبث" (لوقا ١١/٣٩).

قد يقوم الإنسان بفعل الخير، لكن الأهمّ، بحسب الإنجيل، الدافع الكامن وراء عمل الخير هذا. فإن كانت المحبّة النقية هي ما يدفعك إلى خدمة غيرك، تأتي خدمتك متكاملة وسليمة، وتفعل في قلب الآخر، ولو كانت أقلّ ممّا يحتاجه، ماديّاً. أمّا إن كانت بدافع شخصيّ (طلباً لمصلحة)، أو وظيفيّ (برتابة)، أو اجتماعيّ (طلباً لمكانة اجتماعيّة)... إلخ، فقد يستفيد المحتاج ماديّاً، لكنّه يتأذّى نفسيّاً بشكل كبير.

كم من الضروري أن يكون، العاملون في حقول الخدمة عموماً، والكنسيّة خصوصاً، إكليريكيين وعلمانيين، صاحين ومتنبّهين إلى أهميّة استمرار حضور روح العمل المسيحيّة، في قلوبهم وسلوكهم وتعاطيهم مع ذوي الحاجات.

غالباً ما يقع العاملون في هذا الحقل، في فخّ انحصار العمل بأشخاصهم، وبما يرونه، هم، مناسباً، فلا يعودون يهتّمون بالإصغاء إلى ما يقوله الروح القدس، وباستلهام تعليم الكنيسة في أداء خدمتهم. فيعطون الشكل الأولويّة على المضمون، ويتخاصمون في ما بينهم،

ويدخلون في ساحة التنافس مع الهيئات الأخرى ... إلى ما هنالك من مزالق كثيرة. ألا يتمّ هذا كلّه على حساب المخدومين، الذين وُجدت الخدمة، أصلاً، من أجلهم.

كذلك يجب أن يكون التوجّه الأساس نحو الإنسان المخدوم، لا نحو التقنيّة التي تخدمه؛ فهو الغاية وهي الوسيلة. فالاهتمام في شأن استمرار الخدمة وتطويرها وارتقائها ماديّاً وشكليّاً، يؤدي إلى الوقوع في تجربة اتّباع الأسس والمبادئ العالميّة المحض، من دون تعميدها بروح الإنجيل. ما من مانع، بالطبع، من الاستعانة بخبرات الآخرين الناجحة، والاستعانة بالتواصل الإعلامي، واستخدام علوم زماننا، في الإدارة والمحاسبة والتنظيم. إنّما الخطر يكمن في الاستغراق في هذه المجالات على حساب إهمال دور المخدومين والله في مباركة الخدمة وتنميتها.

يجب أن نأتي من الله لننظر في الخطط والمقترحات والعروض المقدَّمة لنا، لا العكس. فإن تبيّن لنا، بعد فحصها، بنور الروح القدس، أنّها تتوافق وروحانيّتنا المسيحيّة نعتمدها. وإلّا فنطرحها خارجاً، مهما كانت مهمّة؛ لئلا يصير الله حاضراً، في عملنا، شكلاً لا مضموناً. من السهل أن يصبح الله اسماً أو غلافاً للهيئة الخيريّة، التي قد تخونه، عاملةً عكس ما يريده، وأعضاؤها لا يعون الانحراف الحاصل، لا بل ينتشون بنجاح مؤسّستهم، ناسين أنّه نجاح عالميّ دنيويّ لا أكثر.

ساحات التعبير عن المحبّة كثيرة ومتعدّدة، في عالم اليوم. بعضها يحتاج إلى العلوم الإنسانيّة الحديثة، كعلم الاجتماع والتربية والنفس والإلمام بنفسيّة وظواهر كلّ سنّ أو شريحة بشريّة على حدة. هذا، ممّا لا شكّ فيه، يساعد الخادم كثيراً، في معرفة حال مخدومه وحاجاته، كما يمكّنه من اللغة المناسبة لمخاطبة مخدومه، غير أنّه يجب ألا ينسى أن لغة محبّته هي الأهم. ما عدا ذلك هي خدمات اجتماعيّة متقدّمة ماديّاً، لكنّها لا تقدّم، للذات البشريّة المخدومة، "النصيب الصالح" المطلوب.

سئلت الأم غفريلا[1]، [كرّست حياتها لمعالجة جميع الناس مجاناً]، عن عدد اللغات التي تتقنها [وكانت تتقن العديد منها]، فأجابت: "لغات اللمس والعيون والقلب!"

[1] خدمت مجاناً في اليونان وبلاد عديدة غيرها، وقضت في خدمة الفقراء والبرص في الهند سنوات عديدة. واعتنقت الرهبنة في شيخوختها. أعلنت البطريركية المسكونية قداستها في تشرين الأول. 2023